محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة الثالثة – هيجل ونظرية «السيد والعبد» بين المركز والهامش

– الهوية والغيرية وثنائية الأنا و الآخر في فكر هيجل:

يعتبر الفيلسوف الألماني هيجل أن الوعي هو أساس وجود الذات و الآخر. ولقد ظهر الإنسان وجوديا مع ظهور الوعي والإدراك والعمل. ويتكون هذا الوعي من خلال العلاقات الجدلية الموجودة بين الفكر والواقع، وبين الأنا والآخر، وبين الذات و الموضوع؛ ويعني هذا أن الإنسان يدرك وجوده وقيمته من خلال وجود الآخر باعتباره وسيطا ضروريا للذات.

فالهوية والغيرية متلازمتان بشكل جدلي بحيث لا يمكننا أن نستوعب مفهوم الهوية من غير أن ندرج مفهوم الغيرية الذي من دونه تظل الهوية بما هي تمثل، مصطلحا مفرغا من أي مضمون رابط. لقد لجأ هيجل إلى تخريج بارع يدرج فيه الاختلاف القائم على الغيرية كصيرورة حتمية لتحقيق مبدأ الهوية؛ إذ ينتهي تطور مفهوم الهوية، عند هيجل، إلى تضمين الاختلاف في عمق جوهر الهوية. وكل الرهان الذي يقوم عليه تفكير هيجل هو كيف له أن يثبت ضرورة هذا الانتقال من الهوية إلى الاختلاف دون أن يمس الهوية في ماهيتها، ويبدأ هيجل مساره التأملي بتقديم الهوية الفارغة أو المجردة على أنها تتسم بالسلبية؛ فسلبيتها في ذاتها؛ إذ هي مساوية لذاتها بحيث يتلاشى الآخر من نفسه انطلاقا من المساواة الصرفة بين الجوهر وذاته. فالجوهر إذن ليس سوى علاقة مع ذاته،و تنعت هذه العلاقة بالهوية. ولهذا السبب يمكن لهيجل أن يعتبر الهوية بمثابة الجوهر، مما يعني سلفا إلغاء لكل غيرية. من ناحية أخرى، يلحظ هيجل أن الهوية بهذا الشكل تبدو فارغة وشكلية و لا عمل لها سوى أن تدور حول نفسها، بما هي سلبية مطلقة تنفي عنها كل اختلاف. [1]

– هيجل: وجود الآخر ضروري للأنا:

يقترح هيجل قراءة مغايرة لمفهوم الهوية يخلص إلى أن التفكير فيها يقود حتما إلى التفكير في الاختلاف، مطمئنا أصحاب نظرية الجوهر إلى أن التطور المنطقي للجوهر لن يفضي بنا إلى الانتصار للاختلاف للتخلي عن الهوية، بل إلى أن نفهم الاختلاف من داخل الهوية. على الرغم من أن الاختلاف يكاد يختفي من الحركة الذاتية للهوية، إلا أن شيئا منه ينبجس في لحظة عابرة من جوهر الهوية. إذا كانت الهوية هي علاقة الهو بالهو، فإن مفهوم العلاقة في حد ذاته يفترض الاختلاف. فهي اختلاف سرعان ما يتلاشى فور العودة إلى الهو. فالفهم الأولي للهوية يتخذ شكل أ = أ، وهو ما يعني، عند هيجل، تحصيل حاصل مفرغ من أي معنى في ظل ثنائية الهوية والاختلاف، وإن كان هذه الاختلاف رهين لحظة هاربة من زمن الحركة بين طرفي الهوية. فـ" أ = ما هو سوى استهلال يفترض أن

---

[1] Voir, Hegel, Friedrich, (2010), La doctrine de l'Essence, trad.G. Jarczyk et P.-J. Labarrière, Kimé, Paris, p.36

ننتهي إلى شيء مختلف، ولكن هذا الاختلاف سرعان ما يتبدى لنا شيئا زائلا، بما أن الحركة تعود إلى ذاتها".[2] فالهوية، إذن، هي اختلاف ما أسرع ما يختفي حين العودة إلى الهو.[3] وهي الفكرة التي طورها هيجل فيما دعاه "بالديالكيتك والذي يتحدد من خلال أبعاده الثلاثة؛ فالحد الأول يؤكد نفسه بنفسه ببساطة بوصفه المقولة الوحيدة في الوجود، وعلى هذا النحو يضع الوجود نفسه ويؤكد أن الوجود هو الوجود، ولا شيء غير ذلك ولا يعني شيئا سوى قانون الهوية أ = أ، وهو مبدأ الفهم. أما الحد الثاني الحد السلبي، فالعدم مثلا حد سلبي يتضمن العقل، لأننا كي نحصل على العدم لا بد أن نخرجه من ضده، أي من الوجود، والحد الثالث هو الصيرورة، وإنما هو عودة إلى إثبات الأول".[4] وينتهي هيجل، بعد تأمل، إلى الاعتراف بأن الوجود والعدم ما هما سوى تجريدين بلا حقيقة، وبأن الحقيقة الأولى هي الصيرورة.[5] وإسقاطا على ثنائية الأنا والغيرية في العلاقات الإنسانية، يؤكد هيجل أن الفرد ينتسب إلى نفسه، بحكم كونه يضع حدودا لما ليس هو، ولكن هذه الحدود هي في الوقت ذاته حدوده هو، وهو بلك يقيم علاقات بينه وبين ما ليس هو، الأمر الذي يجعل أن وجوده ليس في نفسه، وإنما في علاقته الجدلية بالغير/الآخر.

- **جدلية السيد والعبد بين المركز والهامش:**

إلا أن حفرا في عمق طبيعة العلاقة بين الأنا ة والآخر، من منظور هيجل، يحيلنا على جدلية السيد والعبد التي رهنت المعنى الذي يتأسس عليه وعي الأنا بهويتها بصورة هذه الأنا في مخيال الآخر عبر علاقة الصراع. ولم يطل التفكير بهيجل حتى دفع بهذه الجدلية إلى أقصاها حين جعل من قيمة الإنسان وحقيقته متعلقة باعتراف الآخر؛ ولكي ينتزع منه اعترافا بنفسه، فإن لا بد أن يدخل في صراع معه؛ فهو صراع وعيين يبحث أحدهما عن تحقيق وعيه بذاته من خلال إقرار وعي الآخر به.

وبالتالي وجود العبد مقترن بوجود السيد، ووجود السيد مرتبط بوجود العبد. وللتوضيح أكثر، فالسيد مرتبط بالعبد مرتين، والعبد بدوره رهين بالسيد مرتين. فالسيد يحس بالانتشاء والافتخار والزهو حينما يسمع العبد يسيده ويعلي من مكانته. ومن ثم، فالسيد في حاجة إلى العبد ليتحقق من مكانته الاجتماعية، ويتأكد من تميزه الطبقي. علاوة على أن السيد لايمكنه أن يعيش دون العبد (الآخر)، لأنه هو الذي يفلح أرضه ويزرعها، ويجد في توفير الطعام والشراب له. ويعينه على قضاء حوائجه وتحصيل مآربه.

والعبد بدوره يحس بفرح شديد حينما يعلم أن سيده لا يمكن أن يستغني عنه ما دام أداة للإنتاج و وسيلة لتسييد مالكه. وفي الوقت نفسه، يحس العبد أنه دون سيده سيضيع هباء منثورا، ولن يجد ما يقتات منه. و لا من يشغله ويؤويه؛ فالسيد هو الذي يتحكم في رزقه وعيشه ومستقبله.

[2] Ibid., p.41
[3] Ibid, p.38

[4] إمام، عبد الفتاح، (1985)، المنهج الجدلي عند هيجل، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص.149
[5] ينظر، غالب، مصطفى، هيغل، (1985)، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1985، ص.75

وبناء على ما سبق، نرى أن السيد لا يمكن أن يستغني عن العبد، ولا العبد يستطيع أن يستغني عن السيد.

ومن دون إطالة في تحليل هذه الجدلية التي أضحت نارا على علم في مجال الفلسفة، فإننا نريد أن نخلص إلى فلسفة التاريخ عند هيجل والتي، انطلاقا من جدلية وعي الأنا في مقابل وعي الآخر، تقوم على الاعتقاد أن تاريخ الوجود الإنساني لا يمكنه أن يتحقق إلا من خلال العنف؛ إذ يقول هيجل: " لا يمكن للإنسان أن يحقق إنسانيته إلا إذا فرض نفسه على إنسان آخر، انتزع منه اعترافا بنفسه (ذاته)، ما لم يعترف به الآخر فعليا، يظل هدف الفعل الإنساني والغاية منه هو هذا الآخر، فإن قيمة الإنسان وحقيقته تظل متعلقة باعتراف الآخر. ففي هذا الآخر، يتكثف معنى حياة الإنسان." [6]

ومن الأدلة القاطعة على ضرورة الآخر بالنسبة للأنا لدى هيجل نظرية جدلية السيد والعبد. فكل من السيد والعبد يحاول أن يحقق وجوده وحياته وحريته عن طريق الصراع الجدلي. فالسيد لا يمكن أن يحافظ على مكانته الاجتماعية إلا بالصراع مع العبد والانتصار عليه. وينطبق هذا على العبد الذي لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بالصراع ضد السيد من أجل أن يفرض ذاته ويستعيد حريته.

---

[6] المرجع نفسه، 60-61